

# الوادي الأسود



نبهان الحنشي  
hanashi80@hotmail.com

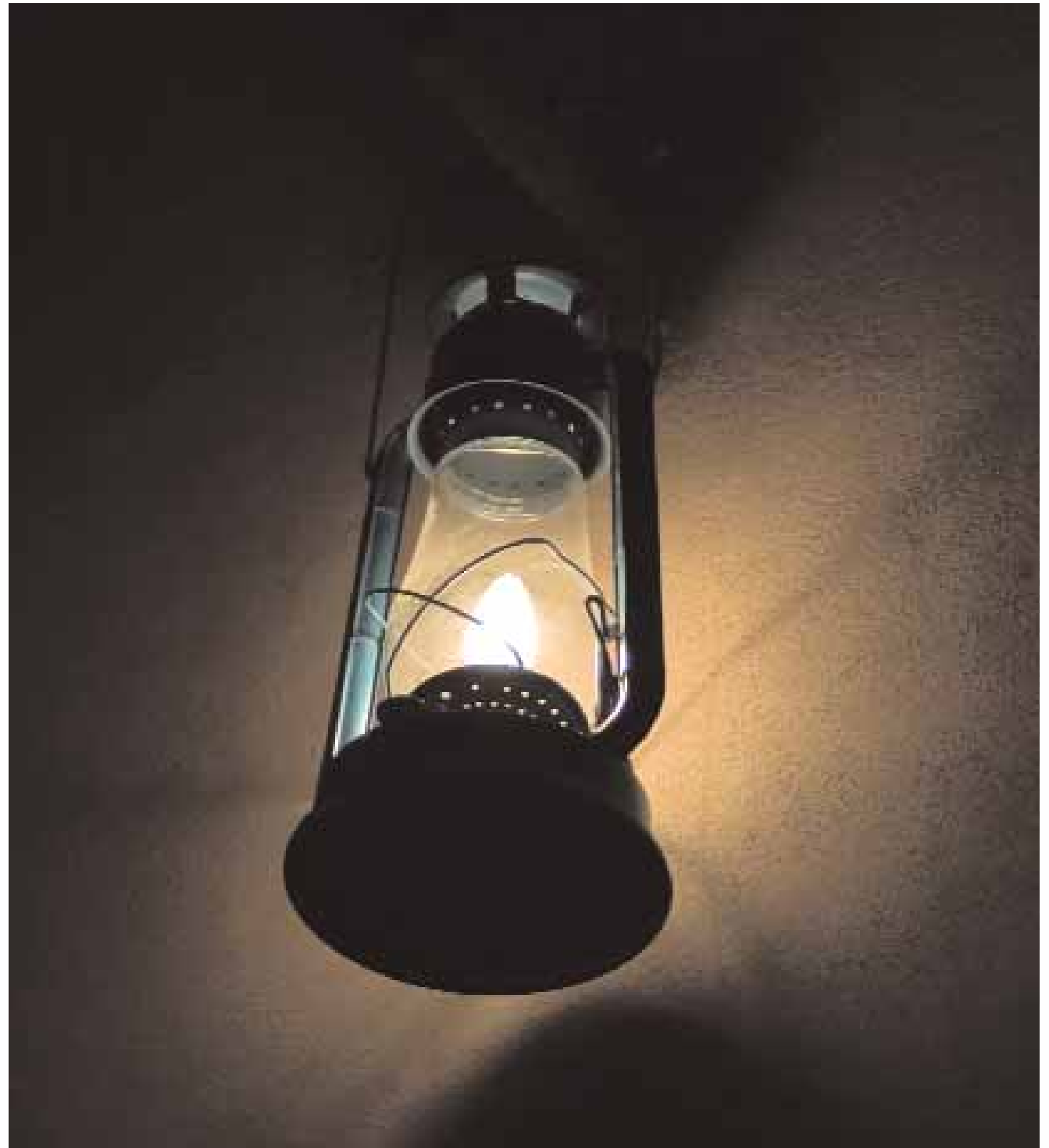
«الشايب» وفي يده كيس ممتلئ بلحم نبي، لكنه كان هذه المرة كثير الالتفات، رطوبة الليل تذبذبه بوجود غريب ما في الظلمة، وكلما توقف ليتحسس مصدر الصوت أو يتبين ملاصق صاحبه اصطدم بسكون الليل، وحين أفرغ كيس اللحم، ظل صوت السلاسل بعيدا عنه مترددا في الإقبسال علسيه. حين أحس بتسارع خطا ما باتجاهه لم تسعفه خفة يده في التقاط عصاه الغليظة.. فارتطم وجهه بقطع اللحم واختلط دم رأسه النازف بالتراب واللحم، واختفت ضوضاء السلاسل.

حين استيقظت القرية على نداء «جموع ود الغلايات»، توافد رجالها على مكان مصدر الهتاف، وكان جسد «ود سويعد» ممددا على ساقية مزرعة «ود الغلايات». ممتلئ رأسه بالدم المختلط بالتراب.. ولا وجود لقطع اللحم!

منذ حادثة مقتل «ود سويعد» كان يتجنب أهل القرية الخروج إلى مزارعهم بعد هبوط الظلام.. إلا «عياض الهني».. كان في كل سواد يوم، يخرج من بيته خلسة، يجري بحذر حتى يبتعد عن منازل القرية، بعدها.. يبطئ من خطواته، يمشی يتكئ على عصي غليظة، ويحمل في يده الأخرى كيسا مملوءا بلحم نبي!!! وحين توغل كثيرا في الظلام، توقف بجانب نخلة طويلة عجفاء لا أسنان لها، تحدث بصوت أمر: تعال، عشاءك هنا!!!

■ يصاعد الدخان، ليشكل سقفا من غيوم سوداء.. ولا نار للدخان سوى الدخان.. بينما ينشغل «ود سويعد الشايب» بنحت جذع نخل في صورة طفل. وحين أحس باختفاء النهار خارج جدران بيته، ترك ما بين يديه، خطا باتجاه مطبخه، سحب كيسا من منضدة المغسلة ممتلئا بلحم خروف طازج، وانطلق في طريق زراعي ضيق مظلم وسط ساقية جافة.. يحمل الكيس بيد وفي الأخرى يتكئ على عصي غليظة.. توغل كثيرا في الظلام، توقف بجانب نخلة طويلة عجفاء لا أسنان لها، يسمع طقطقة سلاسل، ثم يتحدث بصوت أمر هادئ: تعال هنا، عشاءك جاهز.

في صبيحة اليوم التالي، حينما أذيع خبر موت ابن عياض الهني، ذو العشرة أعوام، بعد اسبوع من مرض غريب لم يهتدي الأطباء لدواء له، كان «الشايب» يمد بلعب أطفال وحلوى صغار لجذع شجرة موز.. في الوقت نفسه الذي كان يقلب فيه عياض جثة ابنه «المتخشبة» بسبب المرض الغريب، وحينما نزل الليل مجددا، وعاد «الشايب» من مشواره المعتاد، غسل يديه من بقايا اللحم النئى، ثم ذهب لشجرة الموز، وأنزل منها طفلا لم يتعد ربيع العاشر، فتح له بابا تحت قدميه، قاده من يديه تحت الأرض، بين أناس يعلو الضجيج تجمعاتهم دون أن يلحظ أحدا ما يتحدث. في يوم، ما، ممتلئ بالظلام، خرج



■ الصورة بعدسة حمامة الكندي

## بغداد ناجي جواد

كاظم الموسوي

في ازدهار ارتباطاتي وعلاقاتي المهنية والتجارية.

يوميات ناجي جواد الموثقة لا تخلو من انتباهات سياسية والتفاتات وطنية واضحة، وهو الساعاتي المتفرغ لمهنته وهواياته الأدبية، فتراه منسجما مع نفسه في الحماس للقضية الفلسطينية والدفاع عن الشعب الفلسطيني، ومن ثم خاتمة الكتاب عن الوثبة، انتفاضة الشعب العراقي في ٢٧ يناير ١٩٤٨. التي وصفها بشهادة عيان موثقة بالأسماء والأحداث وبروح وطنية جياشة وحماس أدبي، جامعا ما قاله الشعراء فيها. ومسيرة الشعب في أيامها، مستخلصا من التجربة دروسا له، معتزا بما كان لوثة الشعب من تأثير بالغ «في انفتاح وعبي سياسيا وبلورة موقفه وطنيا. كما كانت تشكل - بكل مبرراتها ونتائجها - مرحلة انعطاف فكري بالنسبة لكثير من أبناء جيلي، شباب الأربعينات، إذ كنت وكنا لا ندرك من هذه المناورات السياسية والمؤامرات الدبلوماسية والمؤتمرات الدولية والمعاهدات إلا ظواهرها الخالية ودعاياتها الكاذبة ودعوات ولائها المستطابية».

وعند الوثبة وتداعياتها وقف الكاتب من تسجيل يومياته في هذا الكتاب، خاتمة عرف فيها بكل الجهود والفعاليات الثقافية والسياسية التي اطلع عليها أو تأثر بها، وكان موضع ثقة وملتقى أبناء جيله الطامحين من علماء وشعراء وأدباء وصحفيين وفنانين وغيرهم لغد أفضل في عراق حر سعيد. ومسجلا في كتاب صفحات من تاريخ وطني وموروث شعبي غني لا تستغني عنه اليوم أية دراسة أو بحث في تاريخ العراق عن تلك السنوات التي عاشها منذ العشرينات من القرن الماضي والى أواسطه.

بغداد سيرة ومسيرة.. كتاب لكاتب عاش أيامه بين وسطه المهني والثقافي وسجلها كما هي بأسلوب أدبي متميز، شهادة ووفاء ووثيقة تاريخية صادقة. ■

\* لندن مطلع يناير ٢٠١٠

وكسبة وطرائف بينهم تطرف الجد والهزل في الحياة اليومية.

صنعته الأساسية التي افرد لها فصولا لم تثنه عن مواصلة دراسته والتثقف الذاتي والإبداع في كل منها. ولما نمت شخصيتي المهنية، وأصبح لي (دكان) صغير في شارع الرشيد وتبلورت ميولي الأدبية، نشرت لي بعض الصحف والمجلات العراقية مقالاتي وقصصي القصيرة، وكان أول من تطف على بنشرها الأستاذ جعفر الخليفي في مجلته الرائدة (الهاتف) وجاري الأستاذ رفائيل بطي في جريدة (البلاد) والصحفي الوفي عبد القادر البراك في جريدة (الأيام) وغيرها من النشاطات الأدبية والمكتبات والأسواق. جامعا بين دقة صناعة تصليح الساعات والتجارة فيها وبين صناعة الأدب والنشر وحب القراءة والكتاب. ومن شغفه في الكتابة والقراءة زاد ولعه في البحث عن الأوائل في الكثير من الأمور، مسجلا أول مقهى وأول مكتبة وأول مطبعة وغيرها، بنيت أو تأسست في مدينته، بغداد. ملخصا جهده وجهاده في الرد على سؤال ملح مطروح عليه كثيرا: كيف وفقت بين أعمالك التجارية ومبادراتك الأدبية؟ «انه التنظيم.. فقد نظمت أوقاتي بين هذه وتلك، تنظيما دقيقا، وكيف لا أستطيع ذلك، وأنا (الساعاتي) الذي استطاع ان ينظم ذبذبات (بندول الساعة) بدقة جيئة ونهايا.. فقد كنت استيقظ مبكرا متوجها على عجل إلى كلية الحقوق، كي احضر المحاضرة الأولى ثم الثانية، وكثيرا ما كنت استغني عن الثالثة، أما الرابعة فلم يكن لها نصيب من وقتي... المهم إنني لم أتخلف يوما عن دراستي.. وكنت حين أعود إلى محلي مسرعا يكون السوق في بداية نشاطه التجاري.. فأمارس عملي طيلة نهارى، وفي الليل تكون عندي فسحة لتدوين ما فاتني من المحاضرات أو للمطالعة ان كان هناك امتحان يستدعي التحضير له، أو لمعانقة كتاب اشتاق لمطالعة أو لأكتب مقالا أدبيا انشره في (الهاتف) الأسبوعية، أو ابعث فيه إلى (الأديب) اللبنانية وكم كان لهاتين المجلتين من فضل علي وتأثير في بلورة (شخصيتي الأدبية) وكما كان لأسفاري إلى الأقطار العربية والأوروبية تأثير قوي

مستعيرا من بحوث العلامتين مصطفى جواد واحمد سوسة ليرصع كتابه بعد ان عزم على الكتابة. «فكلمات هذا الكتاب ومضامينه أضحت تعيش مع كياني. منذ الساعة التي عشت فيها أيام (بغداد)، بتقاليدها وعاداتها، حتى صهرتني ببودقتها الحضارية الذهبية، فتفاعلت بأحداثها وحوادثها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. كما تفاعل أبناء جبلي، جيل (العشرينات) الذي تحمل تبعه دور الانتقال بكل مردوداته التاريخية المجيدة...» ونقل عن العلامتين ما أوردها في كتابهما الموسوم: بغداد في أدوارها الأولى. ومن ثم واصل حديثه عن اختيار موقعها وتخطيطها وتلاه بغداد في نهاية العصر العباسي حتى الاحتلال البريطاني لها وخراب عمرانها خلال الغزوات والهجمات من جيرانها ومن أعدائها. ومن بغداد المدينة وتاريخها انتقل إلى فصول ميلاده ورحيل والده وما خالطه من تقاليد وعادات ذلك الزمان. ومنها إلى بدايات وعيه ودراسته في الكتابات وما قاربها من أحداث عائلية واجتماعية.

وقد وصف الكتابات والمدارس والمحال التي عاش فيها وصفا جغرافيا واجتماعيا، وكأنه أراد ان يكون مصدرا من مصادر دراسة تلك الفترة من تاريخ المدينة وتطوراته. وفي وصفه لسيرته الدراسية يقارب مختارا سنوات منها واضعا عنوانين أدبية لمختاراته منها، دون ان يبتعد عن الأحداث الجسام التي مرت عليه وعلى معشوقته المدينة. فمصرع عبد المحسن السعدون وإضراب العمال واستشهاد الطيار (ناطق) وتمرد الاثوريين ورحيل الملك فيصل الأول وانقلاب بكر صدقي ومقتل الملك غازي وانتفاضة الشعب والجيش في مارس عام ١٩٤١ وغيرها من الأحداث كما سماها وسجلها ضمن سيرته وتأثره وتأثيرها عليه تحتل قائمة سيرته. ولا تخلو الذكريات من طعم المشقة والصدفة أو الحظ وسوء الحظ كما اقتنع مع فولتير ان يقبته بين صفحاتها. وسجل راسما ما عاشه بصدق ومحبة، جامعا اكبر ما استطاع من توثيق وأرشيف لبغداد أيام زمانه، من مدارس وخانات وأسواق وجوامع ومقاه وأدباء وفنانين ورياضيين وحرفيين

■ كتب أفاضل كثيرون عن بغداد، مدينة وعاصمة وحاضرة حضارية، محبة وذكريات أو بحثا ودراسات، ولكن ناجي جواد الساعاتي الأسدي البغدادي، (١٩٢٢ - ٢٠٠٩) كتب عنها جامعا بين الفضيلتين، وراسما لنفسه ولبيغاده التي ولد فيها وعاش حياته فيها حتى قبيل رحيله بعيدا عنها، ما يعجبه فيها وما أراد ان يبقى في الذاكرة من بعده، عنه وعنهما، جاهدا التوثيق والتشويق، متسما بسمايتها وعرفها الشذي الذي بثه بين طبقات كتابه عنها، الموسوم: بغداد، سيرة ومسيرة أو سيرة ومدينة. وأشغفه بالعديد من الصور الفوتوغرافية الجميلة، رغم أنها بالأسود والأبيض، والمعبرة عن تسلسل أيامه فيها، وأحداثها الجسام.

وفي الكتاب سيرته الشخصية ومعالمها الثقافية والحضارية وأحداثها السياسية، فلم يترك قلمه القصصي أمرا مهما في سيرته إلا واختصره لقارئه الذي أراد ان يتغنى به كما حصل له أو سعى ان يكون.

تساءل في مقدمته عن مبعث الشوق في تدوين سيرته، «إذ لم يرغب عن علمي بأنني لن أجنبي من وراء كتابتها غير النصب والتعب، والنقد والتعب، فتدوين مسيرة شعب، أو سيرة إنسان، يعني تسجيل هموم ذلك الشعب ومتاعب ذلك الإنسان» مستشهدا بمقولة لفولتير، تختصر ما سطره في الصفحات الأكثر من مائتين وأربعين من القطع الكبير، «التاريخ هو سجل جرائم الإنسان، والحظ وسوء الحظ». بعدها اعترف أو أراد تواضعا تسجيل وقائع حياته، من انه عاش حياة عادية، وامتهن مهنة مشرفة متواضعة (صناعة تصليح الساعات) ونشأ نشأة شعبية في حارة جل سكانها (حرفيون وكسبة) وتنعهم في هذه الحياة مشفوعا بأحاسيس وطنية عارمة وقومية ملتبهة، حتى انه ينتقد نفسه لوقوفه متفرجا حتى السبعين من عمره قابعا مداريا بالتأسي لقضية الشعب الفلسطيني. إلا انه شجع نفسه في الكتابة لما اشتمل عليه من شمائل الإطلاع والمعرفة ورضاه عن نفسه وعن تجربته وحياته، وما قدمه فيها من جليل الأعمال وكريم الخصال. في الفصل الأول بحث عن بغداد.. الاسم والمعنى،